المضمون التاريخي العالمي لأدب الواقعية النقدية

● تأليف : س. بيتروف ● ترجمة : شوكت يوسف

لعب فن الواقعية في الحقيقة دورا فائــق الأهمية في التطــور الروحي للانسانية وفي مسيرة الفن العالمي • حدد هذا الدور الهام في المقام الاول المضمون التاريخي ــ العالمي الذي اضطلع به أدب الواقعية النقدية • فقد جسد الكتاب الواقعيون من مختلف المراتب في مجموعة اللوحات والصور التي أبدعوهــا خصائص وسمات عصرهم والشخصية القومية لشعوبهم وعبروا عن مشاعر الناس وأفكارهم ، عن رغباتهم وآمالهم وطموحاتهم وجسدوا مثلهم الانسانية والديموقراطية • استطاع الادب العالمي ، وبقوى الواقعية قبل كل شيء ، كما قال بلزاك ، ان « يحلل كل الشخصيات ، يتمثل الاخلاق والاعراف المختلفة ، يطــوف الكرة الارضية كلها ويستشعر هموم ومواجد الناس » •

نفذ الفن الواقعي بعمق ، لم يقدر عليه فن آخر غيره ، الى أعمق أسرار الواقع الانساني • استوعب الكتاب الواقعيون من مختلف الجوانب حيــاة الانسان والمجتمع ، التاريخ الماضي ، عالم الطبيعة وجعلوا مادة الفن كل شيء يهم الناس معتبرين انه حيث الحياة فهناك الشعر •

جسد الفن الواقعي كل لحظات الحياة الانسانية : ولادة الطفل ، عالم الطفولة واهتمامات الاطفال ، الفتوة واندفاعاتها ، نشاط الانسان الراشد ــ تطلعاته ، حبه ، حياته العامة والخاصة ، مرحلة النضج والانتاج ثم مرحلة الذبول ودراما الموت .

أعطت الواقعية تحليلا للمجتمع المعاصر لها من أسفله الى أعلاه ، وعلى كل الصعد والمستويات الاجتماعية ــ الثقافية مجسدا في نماذج انسانية ممتلئة بالحياة . ومن الصعوبة أن نعثر على مجال أو مسألة لم يتطرق اليهما الكتاب الواقعيون في أعمالهم . أشارف . لينين الى ان الكاتب الواقعي الروسي العظيم ليف تولستوي قد طرح القضايا العظيمة للديمقراطية والاشتراكية .

وانعكست في أعمال الادب الواقعي العالمي التجربة الخلاقة للاجيال المتعاقبة ــ لملايين من « الناس مروا على هذه الارض » والغنى اللامحدود لعالم مشاعرهم وأفكارهم ، حتى ليشعر المرء كأن فن الواقعية قد أعاد خلق العالم من جديد . لكن مع انطباع موح بواقعية كبيرة أعظم من الواقع ذاته . فعالم الواقعية الغني ليس انعكاسا ميتا كصورة مرآة ، بل واقعا مصاغا من جديد بشكل خلاق تجسد لوحاته وصوره ونماذجه « الحقيقة الكاملة للحياة » والانحرافات عنها بسبب أخطاء معينة أو محدودية فكرية ــ تاريخية راجعة الى عصر الكاتب وكامنة في فكره .

ارجع ف. لينين أهمية الكاتب الواقعي الروسي العظيم ليف تولستوي في التطور الفني للانسانية الى انه قد عكس في أعماله عصرا كبيرا بكامله من

التطور التاريخي للشعب الروسي . على هذا النحو من هذا المنطلق يجدر ان ننظر الى المغزى أو المضمون التاريخي ـ العالمي لأدب الواقعية النقدية بالكامل

شكلت الواقعية النقدية عصراجديدا في تطور الادب العالمي لانهاعكست، في تصويرها الصادق على ضوء المثل الانسانية الديمقراطية ، عصرا كاملا مهما من التاريخ العالمي ـ عصر الثورات البورجوازية وصعود الرأسمالية ثم بداية انحطاطها ونضال الطبقة العاملة من أجل انتصار الاشتراكية . وهذا ماحدد المضمون الحياتي الجديد لأدب الواقعية النقدية الذي لاقى تجسيدا فنيا ، الى هذا الحد أوذاك ، في ابداعات معظم كتاب تلك المرحلة .

جسد الكتاب الواقعيون في تصويرهم المجتمع المعاصر لهم انحطاط ثم مصرع طبقة النبلاء والاقطاعيين المزاحة عن مسرح التاريخ بقوى البورجوازية النامية وعملية تأقلم بعض فئاتها مع الاوضاع والظروف المستجدة . عكست الآداب الاوروبية كلها تقريبا ، وسلاحها الفن الواقعي ، في فترات زمنية مختلفة وفي أشكال تاريخية قومية خاصة ، عملية التحول من المجتمع الاقطاعي الى البورجوازي كأحد القوانين الاساسية للتطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر . ألقى الضوء على هذه العملية بشكل واسع بلزاك الذي صور ، رغم تعاطفه مع الارستقراطية النبيلة ، الحتمية التاريخية لسقوطها وهلاكها . وانعكست هذه العملية كذلك ، بمختلف جوانبها وبشكل غني ، في مؤلفات الكتاب الواقعيين الروس من بوشكين الى بونين والكسي تولستوي .

عكست الاعمال العديدة للأدب الواقعي في أوروبا وأمريكا في القرن

التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حياة المجتمع البورجوازي بكل تناقضاته ـ الاشكال المختلفة للتقدم البورجوازي ، الظلم والاضطهاد الطبقي ، الطبقات « العليا » و « الدنيا » للنظام البورجوازي ، سيكولوجيا وأخلاق الانسان ـ المالك وحقيقة الناس البسطاء ، الاعمال التجارية الحرة والمعارك الطبقية الاولى بين الكادحين وسادة العالم الرأسمالي • أبدع الكتاب الواقعيون مجموعةغنية جدا من نماذج المجتمع البورجوازي من مختلف المراتب والمستويات بمن فيهم المثقفون ذوو الميول الفردية البورجوازية • كذلك وجد المحيط البورجوازي، الاسرة البورجوازية ، التقاليد ، الاعراف والقيم التي نمت على أرض المجتمع البورجوازي ـ وجد كل ذلك تجسيدا فنيا في النماذج واللوحات التي قدمها أدب الواقعية النقدية • وهنا برزت منذ البداية ، في المضمون الفكري ـ التاريخي لهذا الادب ، سمات جوهرية ذات أهمية تاريخية ـ عالمية •

فخلال تطوره في القرن التاسع عشر « نسف الادب الواقعي التقدمي ، بتصويره الصادق للعلاقات الواقعية ، الاوهام السائدة حول طبيعة هـذه العلاقات ، خلخل جذور تفاؤل العالم البورجوازي وبث الشكوك حول مايقال عن رسوخ أسس الاوضاع القائمة وعدم تغيرها » ، وكانت تلك مأثرةالواقعية، رسالتها التاريخية التي لعب تحقيقها دورا عظيما في تطور الوعي الطليعي وفي تطور حركة التحرر على طريق الاشتراكية • وتحول الفن الواقعي الاصيل ، الناشيء في معمعان كفاح البورجوازية ضد الاقطاع الى رفض العالم الـذي أقامته هذه البورجوازية نفسها •

فضح الادب بالتدريج وفي كل مجالات الحياة الوجه الاجتماعي والاخلاقي القبيـح للطبقات المسيطرة في المجتمع البورجوازي الرأسمالي • رأى كارل ماركس في تصوير الانانية الاجتماعية للبورجوازي ، محدودية اهتماماته وفقر عالمه الداخلي ، مأثرة الواقعية الانكليزية • كتب بهذا الصدد مايلي : « كشف الكتاب الانكليز للعالم في أعمال روائية خالدة حقائق سياسية واجتماعية أكثر من جميع السياسيين والقادة الاجتماعيين والوعاظ الاخلاقيين مأخوذين معا وأعطوا وصفاً تقويمياً لجميع طبقات البورجوازية بدءا من المرابي والرأسمالي الكبير وانتهاء بالتاجر الصغير والموظف والسكرتير في مكتب المحامي • وصفهم ديكنز ، تيكيري ، السيدة بروتتي كأناس متعجرفين ، منافقين ، مستغلين وجهلة رسم بلزاك بشكل تهكمي صور المرابي العتيق غوبسك ، الممول الجشـع نيوسينجن والبورجوازي الريفي المستبد السيد غراندي •

وأوضحت الواقعية بشكل مقنع كيف أصبح المال القوة المحركة للحياة ، مقياس كل القيم ، معيار النجاح والفشل ، ميزان الوضع الاجتماعي والسلطة الفعلية وكيف غداكل شيء مادة بيع وشـراء ، تهدمت الاسرة ، وتشوهت علاقات الحب والصداقة • وبرز على المسرح التاريخي البطل الرئيسي للبورجوازية: الانسان ـــ العدواني من مختلف المراتب والالوان ـــ الجشع ، الوصولي ، الاناني اليائس العاطل عن العمل ، البطل النورستاني ذو العضلات الرخـوة المترهلة ، المرأة التي تحولت الى سلعة ، أداة متعة وصار الجنس عندها المضمون والهدف الرئيسي للحياة ، البطل النرجسي المحب لذاته فقط ، البطل المستعمر الذي يمتص دم الزنوج والملاويين والصينيين والهنود خدمة للبورجوازيـة •

سخرت الارادة والعقل والطاقة والموهبة ، سخر كل ذلك من أجل الانتصار في المعارك ضد الآخرين لاحتلال موقع تحت الشمس على حساب الآخرين •

بعد ثورة ١٨٤٨ غدا أكثر وضوحا للكتاب الواقعيين الطليعيين في الغرب أن البورجوازية قد أصبحت طبقة رجعية طفيلية وعدوة للتقدم الاجتماعي ، في روايات زولا لاتثير شخصية البورجوازي القرف والسخرية فحسب بل ويتنبأ الكاتب بهلاك الحضارة البورجوازية (باريس) • وفي روايته « الصديق اللطيف » عرى موباسان الاخلاق التجارية لنواب البرلمان والصحافة البورجوازية وفي « التاريخ المعاصر » قال اناتول فرانس « واضح ان البورجوازية قد تعفنت تماما ، نعم وهذا ماتشهد عليه قضية دريفوس » • يرسم برنارد شو في مسرحياته في تلك الفترة لوحة هجاء للمجتمع البورجوازي ، كما وتصدر في عام ١٩٠٦ رواية غالسورسي « المالك » •

وحتى في المانيا « اليونكريه » ، لم تلعب البورجوازية في نهاية القرن التاسع عشر نفس الدور الذي لعبته في انكلترا وفرنسا ، لكنها (أي البورجوازية) أثارت النقمة والغضب لدى الكتاب التقدميين • في آب ١٨٩١ أرسل الكاتب الواقعي الالماني فانتاني رسالة الى ابنته يقول فيها : « اني أكره كل ماهو بورجوازي بنفس الاندفاع كما لو كنت اجتماعيا ـ ديمقراطيا لدودا » •و ألف رواية « السيدة ايني ترايبل » المعادية للبورجوازية ، حيث قدم نموذج المرأة التاجرة الجشعة التي تغطي جشعها الى الذهب بالنفاق والحديث المراوغ عن الطيبة وفعل الخير ، ثم رواية « ايفي بريست » التي تحدث فيهاعن المصير التراجيدي للمرأة في المجتمع البرجوازي ـ الارستقراطي•

تلت ذلك رواية توماس مان الشهيرة التي قدمت نموذج البورجوازي بودنبرغ وجسدت في مغزاها الاجتماعي ـ التاريخي المصير النموذجي للمجتمع البورجوازي في أوروبا الغربية • جاء في كتاب ادماني وسلمانوف حول توماس مان مايلي : « في شخصية وصورة ومصير بودنبرغ عرفت البورجوازية الاوروبية نفسها عند عتبة العصر الجديد عندما لم يكن قد بقي للحرب العالمية الاولى ، لبداية الثورة العالمية ولنهاية العصر البورجوازي سوى خمسة عشر عاما على وجه التقريب » •

صور الكتاب الواقعيون في أوروبا الغربية في بداية القرن العشرين بصدق وعمق كافيين الطابع البورجوازي ـ الاناني النفعي لنمط الحياة ، التقسيم الرأسمالي للعمل المهلك للانسان ، الفئات المرابية الطفيلية ، حدود اهتمامات الانسان ـ المالك والمصير التعيس للانسان البسيط •

وكما في الادب الاوروبي الغربي قوي في الادب الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتجاه فضح وتعرية البورجوازية والرأسمالية • أدبر عهد الارستقراطية النبيلة وغدا مصيرها الآن مثيرا للرثاء أو للسخرية والهجاء في الغالب • لكن « سيد » الحياة الروسية الجديد ـ التاجر،الصناعي رجل الاعمال لايوحي بالآمال ولايثير التعاطف • ومن هذا المنطلق صورت نماذج التجار والصناعيين في مسرحيات اوستروفسكي وروايات مامين سيبيرياك « الملايين الوافده » ، « العش الجبلي » وفي قصة كوبرين « مولوخ » • لايثير التعاطف حتى لوباخين بطل تشيخوف ولايسر القارىء ان كان من نصيبه بستان كرز رائع • ولكن تشيخوف فهم جيدا ان في البخار والكهرباء حبا للانسان

أكثر من التقشف والزهد التولستوي ، لذا حيا التقدم الصناعي في روسيا ورحب به معتبرا البورجوازية قوة تقدمية الى حد معلوم • لكنه أوضح أيضا في قصصه « مملكة النساء » وغيرها أن التسابق من أجل الغنى لن يعطي أي معنى أخلاقي للحياة •

أوضح الادب الروسي ان البورجوازية الوطنية لاتتسم بالقوة ولا الثقافة ولا الطموح ، بل انها على العكس مذهلة في حقارتها الفاضحة ، في جبنها وجهلها وبشكل خاص في طفيليتها • وتتجلى مأثرة الكتاب الواقعيين في انهم انتبهوا وأشاروا الى ضعف البورجوازية الروسية التي أصابها العجز في الوقت الذي كان يجري في البلاد نهوض الرأسمالية • وأوضحت الواقعية أسباب هـذه الظاهرة : ـ وهي طابع الجشع الوحشي والجبان لتطور الرأسمالية والبورجوازية في روسيا • فمنذ أواسط القرن التاسع عشر عكست أعمال كثيرين من الكتاب وقوف الانسان من الوسط الشعبي والمثقف الخارج من صفوف الطبقة الوسطى ضد الارستقراطي والبورجوازي • يوافق انجلس على رأي احدى الصحف الالمانية في أن بطل الرواية المعاصرة هو « الفقير » ـ الطبقة المحتقرة التـي غدت حياتها ومصيرها وأفراحها وآلامها تشكل مضمون الروايات ••• وهذا الاتجاه بين الكتاب الذي تنتمي اليه جورج صاند ، ايجن سيو ، بوز وغيرهم يعتبر ، بدون شك ، راية العصر » وخطوة عظيمة الى الامام على طريق التصاق الادب بالحياة الشعبية •

كثيرا ماجذب الوسط الشعبي اهتمام الكاتب الواقعي التقدمي ذا الميول

الديمقراطية وعثر فيه على نماذج جيدة مثيرة قوت في نفسه الثقة والايمان بالمستقبل • وماكان للواقعية أن تصبح ظاهرة عظيمة في الادب العالمي لوانها عبرت بلا مبالاة أمام صور ولوحات الحياة البائسة الشقية التي تحياها الفئات الشعبية الدنيا وملايين الناس البسطاء • إكتسب موضوع الانسان الصغير ونماذج المذلين المهانين تطورا واسعا في أدب الواقعية • جسد هذا الادب النموذج الخلقي الرفيع لأفضل الناس من الوسط الشعبي وكشف في المصير التراجيدي الذي أحاق بأفاضل الناس الحقيقة القاسية الصعبة لحياة الطبقات الكادحة في ظل الرأسمالية •

قام الادب الديمقراطي الروسي بخطوة كبيرة ضرورية تاريخيا الى الامام في تصوير الوسط الشعبي ونماذجه وأشكال حياته ، ولم يكشف أي أدب آخر من آداب أوروبا الحياة الشعبية بمثل هذا العمق والاتساع وبكل أشكالها ومظاهرها المختلفة • وهذا يخص بالدرجة الاولى الطبقة الفلاحية ـ واقعها ، عاداتها ، تقاليدها ، قيمها الاخلاقية وعلاقاتها بالطبيعة ـ الامر الذي وضعت بدايته « رحلة من بيتربورغ الى موسكو » لراديشيف ، قصص غريغوريفتش « مذكرات صياد » لتورغنيف • خطا أدب الستينات والسبعينات ـ نيكولاي وفليب اوسبينسكي ، نكراسوف ، وريشيتنيكوف ـ خطوات أكبر الى الامام في الاستيعاب الفني لكل جوانب وظواهر الحياة الشعبية ، وليس للخارق المتميز فيها فقط • تبرز في أشعار كولتسف وفي الادب الروسي بوجه عام في السبعينات صور العمل وتراكم التجارب ، والخبرات الضرورية تاريخيا

من أجل التطور اللاحق للادب المرتبط مباشرة بمصائر ملايين كثيرة من جماهير الكادحين •

لم يكشف الكتاب الديمقراطيون الخصائص الايجابية للوسط الشعبي وقواه الخلاقة وحسب ، بل انتقدوا أيضا الجوانب المتخلفة للوعي الشعبي • اعتبر تشيرنشيفسكي التصوير الواقعي الصادق بدون أصباغ للحياة الشعبية في قصص اوسبينسكي « بداية التغيير » في التصوير الفني للشعب • والى جانب تقييمهم الرفيع للجوهر والطابع الشعبي بوجه عام غالبا ماكان الكتاب الديمقراطيون يعربون عن قلقهم وحزنهم بصدد تخلف وعي الشعب وكانوا قساة في نقدهم أحيانا لهذا الفلاح الذي كانت حريته وسعادته غالية على قلوبهم •

أشار لينين أكثر من مرة الى ان تطور الرأسمالية أدى الى نهوض الشعور بالشخصية لدى الانسان وفي الوسط الشعبي أيضا • وجسد الادب الواقعي هذا الأمر • فقد عكس الادباء ، خصوصا اوسبينسكي وكورلينكو ، يقظة الشعور بالشخصية في الوسط الفلاحي من خلال نماذج الفلاحين المتمردين الذين أعلنوا بجرأة لمن يضايقهم أن «الحقوق أعطيت للجميع الآن» • وكشفت الواقعية الطابع المتناقض للتطور الاجتماعي للطبقة الفلاحية في ظروف الرأسمالية • فكثيرا ماخرج من أوساط الفلاحين المتطورين الميسورين الى حد ما الكولاك ــ « اكلة العالم » الذين صورهم الادب الروسي في السبعينات والثمانينات بشكل رائع • عن مثل هذا الكولاك كتب اوسبينسكي مايلي :

« انه يلتهم جيرانه ، يتلمظ ويلحس لسانه فقط ثم يمسح بيديه فمه القذر » . أيقظت الرأسمالية الشعور بالشخصية ، لكن عملية اليقظة هذه اتخذت في أحيان كثيرة في الوسط الشعبي اشكالا صاغتها الرأسمالية نفسها : « كل واحد لنفسه واله واحد للجميع » ونذكر في هذا المجال بأخلاقيات الوسط الفلاحي المصورة في مسرحيات ليف تولستوي وفي قصص تشيخوف وبونين .

يشير الادب الغربي الى ظواهر مشابهة في أوروبا الغربية أيضا . كتب الناقد الفرنسي التقدمي بيرغامارا عن موباسان مايلي : « موباسان في أدبنا أحد أوائل من اكتشف تلك الحقيقة الهامة وهي ان الشعب أصبح حامل وحافظ المشاعر والتطلعات الاكثر نبلا وانسانية : العظمة ، الكرامة ، شعور الشرف والحس الوطني الاصيل » . غير أن موباسان نفسه في القصص الفلاحية ، وزلا وليمونيه في رواياتهما يصورون أيضا الاخلاق والعادات والعلاقات المفعمة بالجشع والحسد والنفعية والانانية المتفشية في الوسط الفلاحي بفعل تأثير الاوضاع البورجوازية الرأسمالية . بيرز برت ــ هارت وجاك لندن في أعمالهما الشخصيات القوية الخارجة من الوسط الشعبي المفعمة بالرجولة ، لكن كشف أيضا بشكل مقنع الطابع المشوه الممسوخ للتقدم البورجوازي ــ الرأسمالي من خلال المصائر الدرامية للناس البسطاء .

رافق تطور الرأسمالية في مختلف البلدان تحول قسم كبير من الفلاحين والحرفيين الى بروليتاريا وكذلك املاقهم الشديد ــ الامر الذي خلق درامات انسانية كثيرة أشار اليها الادب الواقعي في حينه . وانتشرت في روسيا بشكل

واسع في نهاية القرن التاسع عشر ظاهرة التشرد في أوساط القسم الجائع المحروم من السكان • وصور الادب بشكل رائع نماذج « روسيا المتشردة » وصولا الى الناس الذين صاروا في « الحضيض » كما برزت على صفحاته صور « العصاة » ، أولئك الذين يمثلون في الغالب دور الناس الذين هصرتهم الحياة وفقدوا علاقتهم بأجواء العمل والكدح •

اذا نظرنا الى فن الواقعية بالاجمال وقيمناه من زاوية تصويره الفني لطبقات المجتمع الاقطاعي والبورجوازي ، فيجدر الاعتراف بانه قد ألقيت الاضواء الكاشفة من قبل الواقعية على كل طبقة اجتماعية • كشف الكتاب الواقعيون في القرن التاسع عشر في أعمالهم الطابع والدور الاجتماعي ،الوضع المتغير والاهمية التاريخية كذلك لكل من مجتمع النبلاء والبورجوازية والطبقة الفلاحية ومختلف فئات المثقفين • واذ كانت مأثرة دخول الطبقة العاملة ، كموضوع اجتماعي ترجع الى الرومانتيكية ــ بايرون ، شيللي، هوغو ، جورج صاند ••• ــ فان الواقعية النقدية بالذات صورت حسب امكاناتها ، وضع الطبقة العاملة في ظل الرأسمالية وأشارت الى تنامي استيائها واحتجاجها ضد هذا الوضع • عالجت الواقعية صراع العمل ورأس المال بشكل عميق في العديد من الأعمـال •

في البداية دخل موضوع الطبقة العاملة في الادب الواقعي دونما ارتباط مباشر بقضايا الاشتراكية ، بل كتصوير فني لظاهرة جديدة في الحياة الاجتماعية تستحق كغيرها الاهتمام من جانب فن الواقعية • ففي روايته « لوسيان ليفين »

يصور ستندال اضراب العمال • في قصة « الفتاة ذات العين الذهبية » يتطرق بلزاك الى لوحات الشقاء والعمل المرهق للعامل ويعبر عن استيائه من استغلاله البشع ، دون وازع من ضمير ، من جانب الرأسمالي المالك ، كما ان أحد أبطاله في « لقاءان في عام واحد » عامل طباعة باريسي وتبرز صورة العامل الانكليزي في أعمال ديكنز ويطرح موضوع الطبقة العاملة في الواقعية الالمانية في في الاربعينات • وهكذا نرى انه ينتظر هذا الموضوع مستقبل عظيم في تطور الادب العالمي •

تعاطف الكتاب الواقعيون العظام في النصف الاول من القرن التاسع عشر مع الانسان الكادح واشفقوا على شقائه ووضعه البائس ، لكن الطابع الفكري – الفني لمعالجة موضوع الطبقة العاملة في أعمال بلزاك ، ديكنز ، فلوبير يكشف قصور فهمهم النضال الثوري للبروليتاري • قال بلزاك على لسان الدكتور بيناس أحد أبطاله القريبين من نفسه في رواية « العيادة الريفية » مايلي : « اعتقد اني قد برهنت بالفعل عن اخلاصي لطبقة الفقراء المحرومين ، وآمل الا أتهم بأني أريد لها الشر • لكن مع تقديري لعرقها وجهدها وانحنائي أمام صبرها وخضوعها أؤكد انها غير قادرة أو مؤهلة للمشاركة في تسيير شؤون البلاد •

البروليتاريون بتصوري أطفال الشعب الكبار ويجب أن يبقوا تحت الوصاية • كان لمثل هذا التقييم أساس تاريخي معين في الربع الاول من القرن التاسع عشر عندما كانت الطبقة العاملة تنتظر المساعدة من الخارج كما أشار

الى ذلك ذات مرة انجلس • لكن منذ عام ١٨٣٠ صارت « الطبقة العاملة والبروليتاريا المناضل الثالث من أجل السيادة » • في ضوء الشروط الجديدة تكشف كلمات بلزاك الآنفة الذكر جوهر ذلك الضلال والخطأ الكبير بخصوص الطبقة العاملة الذي تميز به حتى كبار كتاب الواقعية الكلاسيكية قبل كومونة باريس • عندما كتب انجلس في مقاله عن توماس كارليل ان «عمال انكلترا وفقراءها وحدهم يستحقون الاحترام رغم خشونتهم وهمجيتهم وان انقاذ البلاد سيكون على أيديهم » أعرب ديكنز كذلك عن احترامه للعمال وأشفق عليهم كفقراء ، لكن كان من الصعب عليه وقتها أن يفهم انه على أيدي هؤلاء الفقراء الخشنين غير المتعلمين ـ يجدر توقع الخلاص مستقبلا من النكبات والمآسي الاجتماعية المحيقة بانكلترا البورجوازية ، في روايته « الازمنة الصعبة » يسلط ديكنز الضوء بشكل واسع على التناقضات الاجتماعية القائمة بين العمال والبورجوازية ، لكن لايشير تعاطفه وتأييده النضال الطبقي للبروليتاريا فيصور الكاتب العامل الثوري الشارتي Chartist سلكبريدج بشكل سلبي ويمتدح العامل الضعيف المستكين الذي يرفض الكفاح الثوري ويعول على كرم وطيبة ووجدان السادة المالكين • اعترف ديكنز بحق العمال في الاضراب ، لكنه نظر اليهم ، مع ذلك ، « كأطفال ضالين » • رفض الكاتب أيضا العنف الثوري كوسيلة لتغيير المجتمع • وكان مصدر هذه الميول والآراء قصور النزعة الانسانية الخيالية الخائفة دائما من « الهزات السياسية العنيفة الخطرة على العالم » « بوشكين » ، والمغلفة بالرغبة والأمل في تصالح قوى

المجتمع المتصارعة • ودان بلزاك وفلوبير كذلك القمع الوحشي للعمال الباريسيين في احداث حزيران ١٨٤٨ ، لكن اعترى كليهما الخوف من ثورة « ذوي البستر » •

لكن ، مع ذلك ، لاقت الحركة الشارتية Chartism صدى ايجابيا مباشرا في مؤلفات بعض الكتاب الواقعيين في أواسط القرن التاسع عشر • استطاعت اليزابيت غاسكل في روايتها « ماري بارتون » تقديم نماذج رائعة للعمال الثوريين كالعامل جون بارتون أحد أفراد الحركة الشارتية ومنظم الجماهير وماري بارتون ذات الشجاعة الآسرة ، لكن غاسكل نفسها كصديقتها الكاتبة الواقعية شارلوت بروتي ــ التي رسمت في روايتها « شارلي » العمال الانكليز ــ تنحرف باتجاه أوهام الاصلاح •

كذلك الادب الروسي لم يستوعب فورا التناقض الاجتماعي الاساسي في روسيا ، في فترة صعود النظام البورجوازي ــ الرأسمالي ، بين الطبقات الرئيسية للمجتمع ــ البروليتاريا والبورجوازية ودور الطبقة العاملة في التطور الاجتماعي • لكن أبدى كل من بيلينسكي ، تشيرنشيفسكي ، دوبروليوبوف وبيساروف اهتمامهم بوضع الطبقة العاملة وتعاطفهم معها • في رواية « ماالعمل ؟ » يلتحق لوبوخوف بالعمل تحت اسم تشارلز بيمونت حيث يستعد لقيادة الدعاية الثورية بين صفوف العمال ، وربط بيساريف مصائر أوروبا بحل

★ ــ الشارتيه ــ Chartism حركة قامت في صفوف المثقفين والمصلحين السياسيين ظهرت عام ١٨٣٧ . كانت تطالب باصلاح وضع الطبقة العاملة اجتماعيا وسياسيا .

قضية العمال ، كما عرف شلغونوف القارىء الروسي على مؤلف انجلس « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » •

لاقت قضية الطبقـة العاملة تصويراً فنياً في أدب الستينات • ففي عـام ١٨٦٤ كتب نيكراسوف قصيدته المشهورة « الخط الحديدي » التي برزت‌فيها لاول مرة في الشعر الروسي صورة العامل ، وبدأت بعدها عملية الاستيعاب الفني لعالم العامل وليس الفلاح فقط •

يرسم غليب اوسبينسكي في « الدمار » صورة العامل الطليعي مخائيل ايفانوفيتش من تول • ويعكف كاتب ديمقراطي آخر هو فيودور ريشيتنيكوف على كتابه روايتين عن واقع البروليتاريا في الاورال « عمال الجبال » ، « أين الافضل » • واستطاع الكاتب في هذين العملين تجسيد الخصائص والسمات الخاصة بحياةوميول وأمزجةعمال الاورال ـ أنصاف الاقنان، ينقل ريشينيكوف كذلك البوادر الاولى للاحتجاج والاستياء في الوسط العمالي •

يطور موضوع الطبقة العاملة في الستينات كاتب ديمقراطي آخر هو فيودور اومولوفسكي في روايته « خطوة فخطوة » ـ ١٨٧٠ • كان الطابع المثالي غالبا في تصوير نماذج العمال ، وكان لهذه النماذج جذور في الواقع • لكن « عبرت مظاهرات الستينات عن بعض اليقظة في الوعي » • وفي هذه الفترة بدأت تبرز شريحة غير كثيرة العدد ، لكن ذات تأثير ، من الكوادر البروليتارية المتعلمة في المدن التي تفتش عن الطريق القويمة للتحرر والخلاص من الفقر والظلم والقمع » •

أشار الكتاب الروس الواقعيون ــ الذين يرقبون باهتمام سير الحياة الروسية وينظرون ، بشكل نقدي مع هذا ، الى النظرية الشعبية ــ الى الحقيقة التقدمية الجديدة في الحياة الروسية المتمثلة ببروز العامل الطليعي الواعي على أرضية التطور الصناعي ، المتجاوز للميول والاوهام الفلاحية ــ الشعبية • في نهاية روايته « الارض البكر » يتعرض تورغنيف ، في معرض تصويره الدراما التاريخية للحركة الشعبية ، الى الظواهر الجديدة الخاصة بمرحلة الاصلاح (الغـاء نظام القنانة) غير المعروفـة الا بشكل محدود في ذلك الزمن بالنسبة للادب الروسي ، مثل المعمل ، شخصية العامل ، العامل التقني الجديد المثقف الذي يدير الآلة •• يصور الكاتب العامل بافل كانسان مستقل ، ذكي ، قوي الارادة ، متماسك خلقيا ، مرتبط بكل الوسط الشعبي واحد قادته • رأى تورغنيف في بافل وأمثاله أبطال المستقبل في الادب الروسي • وظر ليف تولستوي كذلك باحترام واشفاق عميقين الى العمال • ففي روايته « البعث » يعتري نيخلودوف البطل الذي يعكس بخصوص هذا الموضوع ميول وآراء الكاتب ــ لدى احتكاكه بالناس الكادحين « شعور فرح السائح الذي يفتح عالما جديدا رائعا غير معروف من قبل » •

أدرك الكتاب التقدميون تدريجيا ان عرض حال العامل ، تعليق الآمال على الانتاج الجماعي ــ التعاوني في المشاعة الفلاحية (الشعبيون) والتعويـل على المواعظ الاخلاقيـة ونداءات الضمير (تولستوي) غير كاف ، بل غـدا ضروريا التفتيش عن قوى واقعية فعالة للكفاح ضد الرأسمالية • فكر أوسبينسكي ، شـيدرين كورليكوف عميقـاً في هـذا الموضوع ــ بالعمليات الاجتماعيـة

الاقتصادية التي خلقها تطور الرأسمالية في روسيا • ويبدأ بشكل جديد في أدب الشعبيين بالذات في الثمانينات ، تصوير موضوع البروليتاريا • ففي قصته « من الاعلى الى الاسفل » ــ ١٨٨٦ يحكي الكاتب الشعبي كارونين عن مصير فلاح شاب ــ مخائيل لونين ينزح الى المدينة ، يصبح نجارا ويتوق الى العلم والحياة الواعية • ويشير بليخانوف في معرض مقارنته للفلاح المتخلف ايفان يرملايفيتش الذي تكلم عنه اوسبينسكي في دراسته « الفلاح والعمل الفلاحي » بالعامل مخائيل لونين بطل قصة كارونين الى ان « أحدهما يمثل روسيا الفلاحية قبل بطرس، بينما يمثل الثاني روسيا العمالية الجديدة الناشئة» رأى بليخانوف في قصة كارونين بداية اتجاه جديد مثمر في الادب الروسي خارج عن الاطار التقليدي في طرح الموضوع الفلاحي منذ زمن راديشيف • كان لمثل هذه العملية أيضا مكان في الاداب الاوكرانية (ايفان فرانكو ، كاتسوبينسكي) ، البولونية (رايمونت) ، الالمانية (بولينصا ــ « الفلاح ») وفي الاداب الاوروبية الاخرى • وتلاقي حياة ومصائر الطبقة العاملة صدى واسعا في الاداب الاوروبية عامة حتى في تلك التي لم يلاحظ فيها هذا الموضوع سابقا • فيصور الكاتب الاسباني بيوباروخ في ثلاثيته « النضال من أجل البقاء » نماذج الوسط العمالي • ويبرز موضوع الطبقة العاملة في مسرحيات هنريك ابسن (« أعمدة المجتمع ») ولدى ب• بيرنسون (« الافلاس ») و « فوق طاقاتنا » تبرز أعمال أدبية حول موضوع الطبقة العاملة كذلك في النثر الديمقراطي التشيكي أهمها « في دوار الماء العكر » للكاتب الواقعي انتال ستاشيك • وفي الادب البولوني تصبح حياة الطبقة العاملة موضوع روايات

« الفحامون »غروشينسكي ، « أرض الميعاد » ــ رايمونت « المشردون » ــ جرمونسكي • وصور العمال في جميع هذه الروايات مفعمة بتعاطف مؤلفيها العميق مع الجماهير الكادحة •

لكن هؤلاء الكتاب أيضا لم يعوا الدور التاريخي التحرري للبروليتاريا اذ يلقي الضوء على قضايا حياتها من جانب أخلاقي بشكل أساسي • أبـدع ابسن ، كما وعـد العمال في كلمة لـه عام ١٨٨٥ ، نماذج رائعة للمرأة الاصيلة الفاضلة القوية الشخصية • لكنه لم ينجح ، مـع الأسف ، في تصوير القـوة الاخرى للمجتمع المعاصر له التي تحدث عنها في خطابه ــ الطبقة العاملة التي آمن بقواها الخيرة ، لكنه فهم دورها التاريخي بشكل رئيسي على صعيدالتطور الاخلاقي للمجتمع فقط • لم يتميز بفهم عميق لنضال الطبقة العاملة كذلـك الكتّاب الواقعيون الالمان في القرن التاسع عشر ــ فريتاغ، شبلهاغن وحتى فونتاني •

مع تطور الرأسمالية يتفاقم الفقر والاضطهاد والاستغلال ومعـه استياء وغضب واحتجاج الطبقة العاملة التي تتوحد وتنتظم من خلال آلية عملية الانتاج الرأسمالي ذاتها • صورت الواقعية النقدية في العديد من الاعمال بشكل بارز الجانب الاول لحياة البروليتاريا في ظـل الرأسمالية ، لكنها لم تهتم الا قليـلا بالجانب الثاني • أشار انجلس الى هذه الاحادية في تصوير الطبقة العاملة في رسالته الى غاركنس في نيسان من عام ١٨٨٨ ، اذ ألقت الضوء في قصتها « فتاة المدينة » على جانب المعاناة في حياة البروليتاريا الانكليزية • لقد غدت قـوة الواقعية وميزتها الايجابية تتوقف الآن ــ حسب رأي انجلس ــ على فهـم

الكاتب الصحيح وتصويره الفني الشامل لنضال الطبقة العاملة عندما يتطرق ، كفنان ، لحياتها .

في نهاية القرن التاسع عشر دخل مجال الواقعية في الروايـة وفي الادب المسرحي من باب عريض موضوع النضال الثوري للطبقة العاملة اذي حلم به انجلس . وكانت تلك مأثرةزولا مؤلفرواية «جيرمينال» عام ١٨٨٥وجيرهارد هاوبتمن مؤلف مسرحية « عمال النسيج » عام ١٨٩٢ . كتب زولا بصددروايته الآنفة الذكر مايلي : « رواية جيرمينال » هي غضب العمال وقد ألحقتبالمجتمع ضربة عنيفة اهتز منها ، هي بكلمة واحدة صراع العمل ورأس المال وفي ذلك كل مغزى الكتاب ، اذ يتنبأ بالمستقبل ويطرح سؤالاً سيصبح الاهم في القـرن العشرين » . وفي تعرضهما لنضال البروليتاريا الثوري سوغ زولا وهاوبتمن استياءها وأيدا احتجاجها ضد الظروف اللاانسانية للحياة . فاذا كان زولا في « المصيدة » قد ألقى الضوء على جانب المعاناة فقط في حياة الطبقة العاملـة وأبرز تعاطفه معها من منظور أخلاقي ــ خيري بشكل أساسي ، فانه صور في « جيرمينال » المكتوبة في ظروف انتفاضة عمال النسيج الفرنسيين في أواسـط الثمانينات ، النضال الثوري للطبقة العاملة ، كما لم يرجع جانب المعاناة الآن الى عيوب وعلل كامنة في الوسط العمالي ذاته ، بل الى استغلال التروستات الرأسمالية للبروليتاريا . على هذه الارضية تمكن زولا من تصوير نمو الوعي الطبقي للعمالوالحتمية الاجتماعية ــ التاريخيةلازدياد حدة صراع البروليتاريا الطبقي مع البورجوازية . يصور اوكتاف ميربو كذلك في مسرحية «القساوسة السيئون ــ ١٨٩٧ » الكفاح الثوري للطبقة العاملة . لكن مع ذلك بقي وهم

« الميول الهدامة » للطبقة العاملة في نسف الحضارة البورجوازية وتقويض أسس المجتمع البورجوازي هو المؤثر بشكل رئيسي على زولا وهاوبتمن : جذب « شبح الثورة الاحمر » زولا وأرعبه في نفس الوقت • فيصور كومونة باريس في « الدمار » بشكل غير صحيح ، علما ان بطولة الكومونارين تلقى احتراما عميقا من جانبه • وفيما بعد يصور رومان رولان في ملحمة « جان كريستوف » مظاهرة العمال الثوريين كانفجار عفوي لاناس حركتهم الغرائز • ورغم ان بطله جان كريستوف يشارك الثائرين على المتاريس انتفاضتهم مأخوذا بصديقه اوليفيه ، لكنه يبقى غريبا عنه ، كما تجلى في مصرع اوليفيه نفسه الذي يأخذ طابع الصدفة المفاجئة قصور فهم رومان رولان للثورة •

لم يكن من السهل أبدا أن نفهم حتى المبرزون من كتاب الواقعية النقدية المنطلقون من الافكار والآراء الانسانية الخيالية السامية ان خلاص البشرية وحل القضية الاجتماعية الكبرى سيكون على أيدي هؤلاء الناس الذين يسحقهم العمل المضني والحاجة اليومية المحرومين من العلم والثقافة ــ على أيدي الفحامين الذين صورهم زولا أو عمال التعدين في رواية ليمونيه « المعمل » وعمال النسيج في قصة هاوبتمن • غدا الاشفاق على الكادحين غير كاف • صار ضروريا وعي الاهمية التاريخية ــ العالمية للنضال الثوري للطبقة العاملة على ضوء النظرية الثورية الطليعية ــ الماركسية • كتب بليخانوف موجها كلامه الى المؤلفين الذين يستبدلون الثورية بالخيرية Philant hropism البورجوازية مايلي : « أفضل ممثلي الطبقات العليا الذين لم يستطيعوا الانتقال الى جانب البروليتاريا غير قادرين الا على تمني « ليلة سعيدة » للمحرومين والمظلومين ،

شكرا لكم أيها السادة الطيبون لكن ساعاتكم متأخرة : الليل ينجلي الآنويبدأ نهار حقيقي ... » . كتب بليخانوف كلماته هذه في فترة غليان ثورة ١٩٠٥ .

وهكذا شمل أدب الواقعية النقدية كل طبقات وشرائح المجتمع المعاصر له من الاسفل الى الاعلى وكشف على ضوء امكاناته التناقض القائم بينمختلف الطبقات في المجتمع البورجوازي ، علاقاتها الحياتية المتبادلة ، وتبعية مصائر بعض الطبقات الأخرى . وان ما أشار ماركس وانجلس اليه بخصوص بلزاك ومعرفته العميقة والشاملة لحياة المجتمع البورجوازي ــ الرأسمالي يمكنسحبه على أدب الواقعية النقدية بالكامل .

شكلت الواقعية الاجتماعية ــ التاريخية للقرن التاسع عشر عصرا جديدا في الادب العالمي لانها أضاءت على نحو جديد الماضي التاريخي للانسانية . في الرواية التاريخية التي تعتبر بحق انتصارا رائعا للواقعية وجدت مختلفة من تاريخ الشعوب والقوميات تصويرا أمينا لها . استطاع والترسكوت ، بلزاك، ستندال بوشكين ، غوغول ، مانسوني ، اراسيك ، شارل دي كوستر ، هنريك سينيكيفيتش ، ايفان فازوف ، بيرس هولداس وكتاب آخرون ، على أساس مباديء الواقعيـة ، أن يكشفوا فنيا الكثير مـن صراعات وتناقضات الماضي الدراماتيكية ، والخصائص القومية للشعوب ويصوروا الاحداث التاريخيـة الهامة ويرسموا عالموأخلاق العصورالمختلفة وصور القادة التاريخيينالعظام. وفي تطور النــوع التاريخي في الواقعية كانت ملحمة ليف تولستوي العظيمة « الحرب والسلام » قمة متميزة .

ـ ٢ ـ

صـور الكتاب الواقعيون بوضوح صراع الانسان مـع « الحقارات الرطاسـية » لحياة مجتمع الملكيـة • جسدت الواقعيـة كثيراً من الدرامات والتراجيديات المنبثقة على أرضية صراع بين الفرد والمجتمع الـذي تمزقـه التناقضات الطبقية ، وقد قام مذهب الواقعية القديمة ــ حسب كلام ماركس ــ وكل كنوزها على أرضية هذه التناقضات وماارتبط بها وتفرع عنها من مسائل وحالات حياتية ومصائر بشرية • ويعتبر كشف الطابع التراجيدي للحياةاليومية في مجتمع الملكية الخاصة وتصوير معاناة قوى المجتمع الحية وذبول أرواحـه الميتة الخصيصة الجوهرية لمضمون أعمال الواقعية • واحـد النماذج المنتشرة بشكل واسع في الادب العالمي هو نموذج الانسان ــ ضحية الحياة • كتب ليف تولستوي ، موضحا مغزى روايتي موباسان « الحياة » و «الصديق اللطيف » مايلي : « مات ويموت كل نظيف وطيب في مجتمعنا ، لأن هذا المجتمع سيء ومرعب بشكل غير معقول » •

تجيء أعمال دوستويفسكي وتولستوي كتلخيص لكل العمل العمـلاق للواقعية الكلاسيكية في تصوير حياة المجتمع فيظل الملكية الخاصة • لم تـكشف في الادب العالمي من قبل ابدا ، بمثل هذا الكمال والتركيز ، بمثل هذه الحدة والقسوة ، التناقضات الصارخة بين الفئات العليا ذات الافضلية والامتيازات في مجتمع الاستغلال وبين فقر وقمع الفئات الشعبية الدنيا ، وفي روسيا القيصرية، حيث أضيفت رواسب القنانة والنظام البوليسي الارهابي البشع الى الاستغلال الرأسمالي فزادتـه تفاقما ، بدا كل شيء قذرا بشكل فاضح ، مثيرا الحقـد

والاحتجاج ومغذيا بالتالي الواقعية الروسية •

خلقت المآسي والعذابات الشعبية واستياء جماهير الكادحين في الريف والمدينة غالبا الامزجة والميول الثورية في الوسط الشعبي ذاته وفي أوساط المثقفين الديمقراطيين الطليعيين • كان القرن التاسع عشر عصر الثورات البورجوازية والحركات التحررية القومية المعادية للاقطاع المعبرة عن تطلعات الجماهير الكادحة التي غدت أساس وأداة هذه الثورات والحركات • ووجد هذا الامر انعكاساته أيضا في المضمون الفكري ـ التاريخي لادب الواقعية النقدية •

ظهرت نماذج الثوريين في الادب العالمي منذ عصر الثورة الفرنسية في مؤلفات غوته وشيللر • وفي شكل رومانتيكي ظهر الثوريون ـ الديمقراطيون على صفحات روايات جورج صاند وهوغو ، وتجد نماذجهم تجسيدا فنيا في الكاتبين بلزاك وستندال ـ معاصري الحركة الثورية الديمقراطية في فرنسا وايطاليا • وقد أشار انجلس الى مأثرة بلزاك في تصويره الصادق لثوريي زمانه المشتركين في انتفاضة باريس في الخامس والسادس من شهر حزيران لعام ١٨٣٢ • ورأى ستندال اناسا حقيقيين صميميين في وسط الفحامين الايطاليين • وجدت الروح الثورية تجسيدا لها في التيارات الثورية الكلاسيكية والرومانتيكية، ولاحقا وجدت التصوير الموضوعي في لوحات واقعية وفي نماذج مجسدة لمراحل هامة من تاريخ الثورة من عهد كونفانت وحتى كومونة باريس •

تظهر نماذج الثوريين على صفحات الادب الروسي في شخص بطل

« رحلة من بيتربورغ الى موسكو » اراديشيف وفي أبطال الشعر الغنائي لدى الديسمبريين ، بوشكين ، ليرمنتوف ، تاراس شفنشنكو • في الواقعية يرسم هرزن نماذج الثوريين الاوائل ، وفي رواية « ماالعمل ؟ » يبدع تشرنشيفسكي أول نموذج للثوري المحترف في روسيا ـ راخماتوف • وتتسم هذه النماذج كلها بأنها مفعمة بحب وتعاطف مبدعيها • ويدخل في المجموعة الفنية لنماذج المناضلين الثوريين ثوريو سليبصوف في « استهلال » و « الزمن الصعب » وبطل الاشعار الثورية الغنائية في السبيعينات وشخصيات أخرى في الادب الروسي مثل ماريانا في رواية « الأرض البكر » والفتاة القديسة في « العتبة » عند تورغنيف ، واندريه كوجوخوف عند ستيبانياكا ـ كرافنشينسكي • ويتسم هؤلاء الابطال جميعا بالروح الرومانتيكية الثورية ، بالوعي وبالالتزام الدقيق الصارم الذي يصل حد التقشف والزهد • وتجسد صورهم السمات النموذجية للثوري الروسي الذي جعل تشرنشيفسكي يستخدم لاول مرة في الادب العالمي من أجل تصويره ، ألوان رامبراندت الحادة التي طلبها ماركس من الكتاب الذين يصورون نموذج الثوري •

لاقت نماذج الثوريين الذين صورهم الكتاب الواقعيون الروس صدى عالميا • ففي تصوير نموذج البطل الثوري في روايته « الفحامون » تأثر زولا برواية تشيرنشيفسكي « ماالعمل ؟ » وبنماذج الثوريين الذين صورهم تورغنيف • ونجد صدى « ماالعمل ؟ » في قصص الكاتب السويدي ستريندبرغ الذي كان من أشد المتحمسين لتشرنشيفسكي في شبابه • كما كتب ايتل

فوينتش روايته المعروفــة « ذبابة النعرة » تحت تأثير أجواء الأدب الطليعي الروسي •

استطاع أدب الواقعية النقدية تجسيد سمات المناضلين الثوريين في الماضي ـ نقائهم الاخلاقي وسمو تطلعاتهم الانسانية ، واخلاصهم لقضية الكفاح من أجل الحرية ، كما صور فنيا ، الى جانب ذلك ، مصيرهم التراجيدي المرتبط بالاخفاقات التاريخية للحركة التحررية •

وفي أوساط الطبقة المسيطرة وبين صفوف المثقفين التقدميين ، وليس في الوسط الشعبي فقط ، أناس مخلصون شرفاء غير ثوريين ، لكنهم متعاطفون مع قضايا الشعب ومشفقون على آلامه يتمنون بصدق الخير العميم ويتطلعون الى العدالة • تمر نماذج الابطال الخارجين مـن صفوف الطبقـات المسيطرة والراغبين بتبني وجهة نظر المصالح الشعبية كسلسلة طويلة في الادب العالمي في القرن التاسع عشر • وقد دل ظهور مثل هذه الشخصيات لوحده على اعتراف من جانب الادب التقدمي بضرورة التغيير الاجتماعي للحياة •

الى جانب ذلك صور العديد من أعمال الواقعية الاوروبية الغربية فـي القرن التاسع عشر بدءا من بلزاك ، وفي الادب الروسي بدءا من « مصيبة من العقل » لغريبايدوف انهيار الاوهام الفكرية التي كانت لدى كثيرين مـن الشباب ذوي الميول التقدمية من شتى الاوساط الاجتماعية • وتجلى هذا الانهيار في عجز الانسان ذي الارادة الحرة والتفكير المستقل ، في اصطدامه بقوى الجمود والرجعية ، في خيبة الامل اليوم فيما كان أمس حقيقة ، وفـي

الحلول الوسط والمصالحة ومن ثم في الانغلاق والانكفاء على الذات ــ الأمر الذي وجد تعبيرا له في التأملية الذهنية لدى العديد من المثقفين التقدميين غير الراغبين بخدمة البورجوازية ، انما وغير المرتبطين بنضال الجماهير الكادحة . وتعتبر دراما سولنس بطل ابسن الذي ألقى بنفسه من أعلى البرج الذي بناه ، الى حد ما ، رمزا لمثل هذه الدرامات الروحية . وبالمقابل كان أساس الرضى والفرح في مثل هذه الحـالات والاشكالات الحياتية مرتبطـاً « بالسعادة البورجوازية الصغيرة » (بامبلوفسكي) التي عنت قبل كل شيء المصالحة مع الحياة ، والتراجع عن المثل الاعلى السامي وفقدان الكرامة الانسانية ــ الامر الذي صوره تشيخوف بدقة وصدق . وعالجت أعمال واقعية كثيرة هذه المسألة ــ مسألة المثقفين التقدميين في القرن التاسع عشر ــ (الانسان الزائد). جسد الادب الواقعي الروسي المصائر الدرامية للمثقفين الطليعيين الروس ويكفي أن نذكر هنا بأعمال غريبايدوف ، بوشكين ، هرزن ، تورغنيف ، تشيخوف وغيرهم ...

يمكن أن نقول وبدون مبالغة أن تصوير التناقضات القائمة بين التطور الروحي ــ الخلقي للفرد وبين الظروف الاجتماعية غير المواتية لهذا التطور قد شكل المضمون الرئيسي الهام للادب الواقعي في أوروبا وللواقعية الامريكية فيما بعد . وتكمن هذه التناقضات بهذا الشكل أو ذاك في أساس الصدامات والصراعات الحياتية القائمة في أهم أعمال الادب العالمي .

وجسد العديد من النماذج الادبية الحية التي خلقها فن الواقعية في القرن

التاسع عشر النضال البطولي المتواصل أبدا للبشر من أجل كرامة الانسـان وسعادته •

ثمة صفحات شاعرية خالدة واشعار غنائية كثيرة تصور مشاعر ومعاناة انسانية كالتعلق بالوطن ،الحب، الصداقة وصفات شخصية كالرجولةوالشجاعة خالدة وأشعار غنائية كثيرة تصور مشاعر ومعاناة انسانية كالتعلق بالوطن ، الحب ، الصداقة وصفات شخصية كالرجولة والشجاعة في مواجهة شدائـد الحياة ، وأخيراً الحب للاطفال وللا هل ، وبصرف النظر عن كل توجهـه وميله النقدي تطلع الكاتب الواقعي دائما ، عندما كان يلحظ شيئا ما ايجابيا وجيدا الى تصويره من أجل ترسيخه في الواقع •

لكن ، رغم ذلك ، فقد كشف الادب الواقعي بشكل واسع تلك العملية التي أسماها غوركي انحلال الشخصية كتب غوركي عام ١٩٠٩ مايلي : « نأمل أن يكتب أحـد الرجال المخلصين الشرفاء كتابـا حزينا بعنوان « انحـلال الشخصية » يعبر فيه بوضوح عن عملية الافقار الروحي المستمرة للانسان وتقلص ذاته » • ويعتبر تاريخ الادب العالمي وفن الواقعية في المقام الاول خير شاهد على هذه العملية •

تقود عملية انحلال الشخصية الى تفكك وتفتيت النماذج الانسانية التي يضطر الكتاب الواقعيون في نهاية القرن التاسع عشروبدايـة القرن العشرين للرضى والتسليم بها •

ان موضوع « الانسان الصغير » الذي شغل الادب التقدمي الى حين ،

مع احتفاظه باهميته ، تحول في أعمال تشيخوف ، وموباسان وغيرهم بالتدريج الى موضوع الانسان « الضئيل » الضيق الافق الذي لاتتجاوز تطلعاته اطار الحياة اليومية الخاصة بالبورجوازي الصغير .

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أشار كثيرون من الكتاب النابهين في الغرب وفي روسيا ــ فرلين ، بورجيه ، ابسن ،تشيخوف ، بلـوك الى الانتشار المتزايد « للتعب النفسي » ومزاج اليأس وعـدم الايمان بالحياة وكذلك الى انفصام الشخصية الذي أشار اليه دوستويفسكي في « المثل » . كتب دوستويفسكي بهذا الصدد ما يلي : « انها فكرة رائعة ونموذج عظيم من حيث أهميته ومغزاه الاجتماعي وقد كنت أول من تنبأ به » .

وتغدو دراما انفصام الشخصية واحدة من أهم مواضيع الادب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ يفقد انسان المجتمع البورجوازي وضوح شخصيته واستقلالها .

ويتفاقم اغتراب الانسان عن المجتمع والناس عن بعضهم حتى في الاسرة ــ الامر الذي وجد تصويرا له في الكثير من أعمال الادب العالمي في نهاية القرن التاســع عشر والثلث الاول من القرن العشرين من قصــة « ايفــان ايليتش » لتولستوي الى رواية فرانسوا مورياك « عقدة الافاعي ــ ١٩٣٢ » . وتؤلف عملية « تقزم » الانسان واغترابه في ظل ظروف مجتمع الملكية الجانب الهام والجوهري في مضمون أدب الواقعية النقدية .

في نهاية القــرن التاسع عشر يعاني الكتاب الواقعيون أكثر فأكثر ، في

الغرب وفي روسيا ، مصاعب جدية في خلق النموذج الايجابي الذي من شأنه تجسيد الافق التاريخي للتطور الاجتماعي • فيحاول كثيرون منهم ارضاء هذا التطلع باللجوء الى مجال الابداع الذهني للانسان وجانب العلاقات الاخلاقية والسلوكية لحياة البشر مثل الحب ، الصداقة•• وغيرها • لكن واجهت الكاتب هنا محدودية الامكانات والفرص التي يتيحها الواقع •

كانت الاعمال الفذة في الماضي تستقي مادتها من المآسي والشقاء والعذابات التي تعترض سبيل حياة الانسان ، أي كان الجميل والرائع في الفن يأتي من تصوير القباحة والتشوه القائمين في الواقع • لم تكن غاية المعالجات الفنيــة المختلفة والتصعيد الدرامي والرواية القديمتين وكذلك معاناة البطل في الاشعار الغنائية التي تصور طاقة الانسان ، حماسه ونشاطه وقواه الخلقية ، تثبيت قيم انسانية معينة بقدر ما كانت موجهة من أجل الصمود في الكفاح من أجل الحياة وتجاوز الظروف الصعبة غير المواتية • كان على تولستوي ، مثلا ، أن يخصص القسم الاعظم من روايته « آنا كارنينا » لتصوير مصائب ومآسي أبطاله •• ولهذا السبب اتخذ تصوير الانسان في الغالب طابعا سلبيا •

من أجل التأكيد على شيء ما سام أو ترسيخه نادرا ما كان الكاتب الواقعي يجد مستندا في الحياة • وقد عكس فقدان البطل الايجابي الحركة العامــة المتصاعدة في ذلك الوقت لعملية انحلال وبؤس شخصية الانسان في المجتمـع البورجوازي ــ الأمر الذي كان لا بد أن يجد صداه في مصائر الفن الواقعي •

— ٣ —

كان تطور الايديولوجيا البورجوازية الديمقراطية الارضية الفكرية للواقعية في القرن التاسع عشر بشكل رئيسي • وكانت الافكار الديمقراطية والانسانية في أشكالها ومظاهرها المختلفة بدءا من الاعتراف بالانسان سيد مخلوقات الطبيعة ، حامل العقل وخالق الحياة ، وانتهاء باعلان حرية ومساواة واخوة الانسان كأساس لحياة المجتمع الانساني العامل الفعلي للتطور التقدمي للأدب العالمي وبالاخص أدب الواقعية •

قامت أفكار الحرية والمساواة والاخوة من خلال نضال الشعوب ضد العهد الاقطاعي القديم وتجلت بأقوى واسطع مايكون ابان الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر التي فجرت حماسة جميع كتاب العالم التقدميين •

بيد أن الثورة الفرنسية قادت الى قيام النظام البورجوازي — الرأسمالي وغدت مملكة العقل التي وعد بها المنورون مملكة البورجوازية في آخر الامر • منذ ذلك الحين بات كثيرون من رجالات الثقافة ، بمن فيهم الكتاب الواقعيون، يتساءلون الى أي حد مفيدة فكرة تغيير المجتمع عن طريق الثورة ، حيث تقطف الطبقات المسيطرة بشكل رئيسي ثمار جميع الثورات المتعاقبة • أما الناس البسطاء فمازالوا، كما في السابق، يرزحون تحت نير الظلم والعبودية ويحصدون المآسي • اعتقد شيللر الذي رأى قبل غيره ثمار الثورة البورجوازية الفرنسية أن تغيير الحياة والانسان بواسطة الثورة غير ممكن ، بل يجب من أجل ذلك السير بطريق التطور السلمي الذي يعتبر الفن والتربية الجمالية العامل الاساسي فيه • وعن « الثورات الفاشلة » كتب الكاتب الرومانتيكي نوديه والواقعي

بلزاك • واعتبر ديكنز القرن السابع عشر عصراً عظيما في تاريخ انكلترا وكتب رواية مفعمة بروح التعاطف مع الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر • لكنه لتبرمه وعدم رضاه بواقع زمانه فضل ان يعلق الآمال لاعلى الثورة ، انما على الاصلاحات السلمية بروح النزعة الانسانية والعدالة الاجتماعية •

وفي الادب الروسي أيضا تصادفنا آراء وأهواء تشكك بالطرق الثورية لتغيير الحياة • فقد برزت شكوك من هذا القبيل لدى هرزن مثلا وهو يراقب في الغرب ثورة ١٨٤٨ ، لكنه تجاوز ذلك فيما بعد تحت تأثير المناخ الثوري السائد في روسيا في ستينات ذلك العصر ، فقد دعا الديمقراطيون الثوريون روسيا الى العمل الى الثورة • لكن الثورة الفلاحية الحاصلة هنا قادت الى نفس تتائج ثورة اليعاقبة في فرنسا من الناحية الاجتماعية ـ الاقتصادية في نهاية القرن الثامن عشر ـ أي الى قيام نظام بورجوازي ـ رأسمالي •

وهذا ماحصل لدوستويفسكي • فبعد الشرخ الذي أصاب تطوره الروحي والنفسي يصل الى استنتاج عام مؤداه ان ثورة ١٧٨٩ لم تقدم للانسانية سوى الضلال والشر والعنف ، وكانت عاقبتها نابليون روتشيلد وسطوة الجشع الحيواني • كان برنارد شو بعيدا من حيث المواقع الفكرية عن دوستويفسكي ، لكن كانت تدور في رأسه أشباه هذه الافكار • كتب متذكرا عنف اليعقوبيين ما يلي : « وماذا كانت النتيجة ؟ فرنسا الامبراطورية وآل روغون وفرنسا الجمهورية وفضيحة بانما وقضية دريفوس • هل كان ذلك يستحق كل هذه المذابح للنساء والرجال أياً كانت الاسباب والنوايا • ومن أجل هذه النتائج هل يقرر انسان سليم التفكير حتى ذبح فأر » •

الى مثل هذه الخلاصة توصل ليف نيكولايفيتش تولستوي • كتب في دفتر مذكراته عام ١٩٠٢ مايلي : « النصف الاول من القرن التاسع عشر بكامله مملوء بمحاولات نسف النظام الحكومي الظالم بواسطة الثورة والعنف لكـن كل هذه المحاولات قادت الى رد فعل والى تعزيز سلطة الطبقات الحاكمة » • لم يقصد بذلك « الثورة الفرنسية الكبرى » بل وثورتي ١٨٣٠ و ١٨٤٨ • وبصدد « المحاولات الروسية للثورة عن غير طريق القصر » بدءا من ١٤ كانون أول ١٨٢٥ (ثورة الديسمبريين) يشير تولستوي الى انها جميعا لم تستطع الانتهاء الى شيء سوى تقتيل الكثير من الناس الجيدين والى رد فعل عنيف من جانب الحكومة » •

كان ثوريو السبعينات الشجعان « أناسا جيدين » في نظر تولستوي ونظر تورغنيف أيضا • لكن العنف والكفاح الثوري أرعبا تولتسوي ولـم يسفرا برأيه عن أية نتائج مثمرة • كشف تورغنيف دراما الحركة الشعبويـة الثورية في السبعينات بصدق في روايته الارض البكر • ويبرز الشك بقدرات الثورة من خلال تصوير مصائر الثورة الفرنسية ١٧٩٢ ــ ١٧٩٤ في روايـة أناتول فرانس « الآلهة العطشى » المكتوبة بعد فشل ثورة ١٩٠٥ في روسيا التي هزت نهايتها التراجيدية المفجعة الكاتب الفرنسي العظيم المتعاطف معها •

لكن الكتاب الانسانيين في الماضي الذين رفضوا الثورة لم يفهموا انـه لايمكن تخليص الشعب من مضطهديه بطريقة أخرى • فقد عول أغلب الكتاب الواقعيين على التقدم السلمي وربطوه بالاصلاح الاجتماعي ، بتطور الحريات

الديمقراطية والعلم والفن والمعارف وبانتشار مبادىء الانسانية والعدالة • اعتبروا أناس الروح ــ المثقفين « ملح الارض » وعليهم علقوا الآمال في تحسين الحياة وفي التطور التقدمي للانسانية • أعلن تورغنيف ذلك بصراحة في جداله مع هرزن في الستينات • وعلق صديقه فلوبير كذلك كل الآمال على رجال الفكر والعلم • وينطبق هذا الامر ، الى هذه الدرجة أو تلك على زولا ،فرانس، شو ، ويلز رومان رولان ، وعلى كثيرين من الكتاب الواقعيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين •

كان لمثل هذه التمنيات والآمال أساس تاريخي موضوعي • فقد كانت شعارات الحرية والمساواة والاخوة التي أطلقتها الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر نصرا عظيما للعقل الانساني • تطورت الفلسفة والعلوم الاجتماعية والطبيعية ونفذت بعمق تدريجيا الى حياة المجتمع وأسرار الطبيعة ، ومع كل انجاز جديد للفكر الاجتماعي الطليعي ، كانت تنتعش ثانية الآمال المعلقة على العقل الانساني ، على أناس الروح ومقدرتهم على تغيير العالم وتحسينه •

وسعى كثيرون من الكتاب الواقعيين لارضاء رغبتهم في تجسيد المثل الاعلى الايجابي فتوجهوا نحو مجالات الابداع الذهني للانسان من علم وفن وتقدم تقني • فأعطى أدب الواقعية على امتداد القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين العديد من النماذج الرائعة الفذة لاناس الفن والعلم مكبرين سعادة الابداع والخلق واعطاء الذات كليا للقضية المحببة ــ فمن أبطال بلزاك الى جان كريستوف لرومان رولان ومن فاوست غوته الى فاوست توماس مان •

قال رومان رولان بما يشبه صيحة الرضى : « آه ياسعادة الخلق الالهية ثمة سعادة واحدة فقط هي سعادة الخلق • يعيش فقط من يبدع » •لكـن في مجال الفن أو العلم فقط كانت ثمة امكانات وفرص متاحة أمام الكاتب الواقعي النقدي لأن يعكس صورة السرور الذي يتركه العمل الخلاق في الانسان •

وهنا يكمن السبب الذي جعل الموضوع الانساني للفن والعلم موضوعا مرغوبا ومحببا لدى كثيرين من كتاب الواقعية في الماضي • لكن ضاق مجال هذه الامكانات والفرص مع الزمن أمام ضرورة تصوير الطابع الدرامي لمصير العالم أوالفنان الشريف في ظل أوضاع عالم الملكية •

طرح بعض الكتاب فكرة التربية الجمالية للمجتمع من جديد ورأوا في الفن وسيلة انقاذ من تفاهات المجتمع البورجوازي ، وقلعة للروح • لكن لم يكـن ذلك في كل مرة سوى شكل جديد من اللجوء الشيللري غير الموفق الى مملكة الجمال • كان بلزاك قد أوضح قبلا ان الرأسمالية تحول كل القيم الروحية الى سلعة • أما كيف يغدو الفن والكتابة عموما مادة للتجارة فقد تحدث عن ذلك رولان في « سوق في الساحة » ومن بعده درايزر في روايته « العبقري » •

وبدت وهمية كذلك الآمال المعلقة على دور العلم والتقنية في التغـيـير الاجتماعي للمجتمع • ففي عصر الواقعية النقدية تطـورت في الادب العالمي روايات الخيال العلمي التي نفذت بجرأة على يد جول فيرن ، هربرت ويلز وغيرهم مستندة على معطيات العلم والتقنية الى مستقبل التقدم العلمي ــ التقني القريب والبعيد للانسانية كاشفة ، في اشكال طوباويات اجتماعية ، تطـور

المجتمع الانساني • لكن رأى الكتاب فيما بعد سريعا عدم استقلالية العلم والعلماء من كيس النقود « الخالد » ـ أ• دوديه ، « النفق » ـ كيلرمان ، روايات بيير آمبا) • وأوضح هربرت ويلز نفسه عبثية طوباويته الاجتماعية التكنوقراطية • ففي روايته « عندما يستيقظ النائم » عندما يستيقظ الحالم والمخترع العظيم غريم بعدمائتيعاملايرى في انكلترا مملكة الحريةوالديمقراطية التي يديرها عباقرة العلم والتقنية بل سيطرة شاملة لاحدود لها للاحتكارات الرأسمالية الرهيبة وعبودية اقتصادية تامة للجماهير الكادحة •

تحب الدعاية البورجوازية ان تردد دوما نغمة المبادرات الفردية الحـرة « البناءة » التي يتيحها النظام الرأسمالي • وقد أشارت الواقعية الى الجانب التقدمي لهذا الامر ، لكنها أكدت على أن هذه المبادرات الحرة لا تبني حضارة انسانية ، كما فضحت الاوهام المرتكزة على « الطاقات الخلاقة » التي تطلقهـا الرأسمالية • أما الطابع الاناني والجشع الوحشي الذي تتميز به هذه المبادرات فممثل بشكل ساطع في « النقود » ـ زولا ، في روايات « نهاية بورجوازي » ليمونيه ، « مدينة اناتول » ـ كيلرمان ، « ثلاثية الرغبة » ـ درايزر • ولعبت دورا كبيرا في التطور الروحي لكثيرين من كتاب أوروبا أوهام وطوباويات اجتماعية أخلاقية أين منبعها القرية والميول الفلاحية ـ الديمقراطية ذات الطابع البطريركي • فمن جورج صاند في المرحلة الاخيرة الى الكتاب « الشعبيين » الروس وحتى تولستوي العظيم توالت النداءات بالعودة الى رخاب الطبيعة ، الى عالم العلاقات الريفية البطريركية ورفض التقدم الصناعي الذي يحمل معه

انهيار القيم وفساد الاخلاق • وتغنى كثيرون بالحياة الفلاحية ، بحياة القرية كركيزة أساسية للصفاء الخلقي والانسانية الحقة ورفضوا المدينة « الفاسدة» • امتدحت جورج صاند في رواياتها الفلاحية الوسط الريفي وحلمت باقامةمشاعة في مكان ما في حضن الطبيعة بعيدا عن المدينة الصناعية (طحان من أنجيبو)• ورسم دوديه في أعماله عن القرية ، اويرباخ في (أقاصيص ريفية) ، وتوماس هاردي (تحت الشجرة الخضراء) ، ويلهيلم بولينتص (روايةالفلاح) رايمونت (رواية « الرجال ») والكتاب الشعبيون الروس ــ رسموا جميعا بألوان فاقعة وبتفصيل كبير حياة القرية والطبيعة الريفية الهادئة العذراء ، قدموانماذج خلابــة تكشف عن طيبة الانسان الريفي والسمات الخلقية الرفيعــة للوسط الفلاحي الكادح •

في روسيا سخر تورغنيف منذ مطلع الستينات ، بعد الغاء نظام القنانة مباشرة ، من ايمان هرزن الشعبي بالخصائص « الخلاقة » للمشاعية الفلاحية• أظهر فن الواقعية النقدية في الغرب (زولا وموباسان) وفي روسيا (تشيخوف وبونين) خيالية الآمال الرومانتيكية بخصوص البطريركية الفلاحية ، موضحا الانقسام الطبقي لجمهور الفلاحين ، وجمود وتخلف الحياة الريفية وتفسخ القرية بفعل هجوم المدينة الرأسمالية عليها • واذا كانت فرائص ليمونيه ترتعد من تزايد حدة التناقضات الاجتماعية وانحلال المجتمع البورجوازي واذا يكبر في أعماله سكان الغابات والحقول الذين لم تدنسهم المدينة وينادي بالخروج من المدينة الى رحاب الطبيعة (رواية « ضميران » وغيرها) فان معاصرهالكاتب البلجيكي الآخر ــ فرهارن ــ يوضح الدراما الاجتماعية للقرية الفلامندية

القديمة الحبيبة على قلبه التي تضمحل وتموت تدريجيا (« قرى في غيبوبة ») (« قرى الأشباح ») ويخنقها الاخطبوط ــ المدينة الرأسمالية •

خراب الوسط الفلاحي الكادح وانهيار العلاقات البطريركية هما موضوع رواية « الارض التي تموت » للكاتب الفرنسي ر• بازين ورواية « العزبة الملعونة » للكاتب الاسباني بلاسكوايبانيس • وفي عصرنا يكتمل هذا الموضوع بتصوير التراجيديا العنيفة للمزارعين الامريكيين في رواية الكاتب الامريكي جون شتاينبك « عناقيد الغضب » •

لقد شكلت كل مرحلة جديدة في التطور التقدمي للمجتمع آمالا جديدة بخصوص امكانية تحقيق المثل الانسانية في الواقع القائم • وأشار فريدريك انجلس في معرض مقارنته بين عبودية القنانة والعبودية الرأسمالية الى أن الاخيرة قد جلبت معها على الاقل مبدأ الحرية وكونت في رؤوس الناس المقدمة الضرورية لتجسيدها في الحياة • وبالتدريج تتشكل المقدمات الاجتماعية والاقتصادية الموضوعية لتحرير الانسانية • لكن مع ذلك ، مع كل خطوة للمدنية الى الامام تخطو اللامساواة خطوة الى الامام أيضا ، وكل المؤسسات التي تقوم مع تطور المدنية تتحول الى مؤسسات ذات طبيعة مناقضة لما انشئت من أجله » •
مع كل مرحلة من مراحل تطور مجتمع الملكية الخاصة تتعمق وتتفاقم التناقضات الاجتماعية وآلام ومآسي ملايين الكادحين والصراع المزمن بين « الكبار » والصغار الامر الذي خلق الشك بشتى النظريات السوسيولوجية والمقولات الاجتماعية ووجد تعبيرا له في أدب الواقعية •

وتخيب آمال معظم الكتاب الواقعيين بالديمقراطية البورجوازية . فابسن يقرر على لسان بطله شتوكمان انه قد تسممت « كل ينابيعنا الروحية » وان « كل حياتنا الاجتماعية تقوم على أساس من التزييف والدجل » ويقول غوركي ان اناتول فرانس « لم يترك جانبا من جوانب الاساس الفكري للدولة البورجوازية دون اظهار معناه المتناقض المنافق واللاانساني » . وبالنسبة لابسن وفرانس ، لتولستوي ودوستويفسكي فان شتى نظريات التقدم البورجوازية التي تكشف بوضوح عن علاقتها بالطبقات المسيطرة غير مقبولة . واذا كانت الليبرالية البورجوازية قد أخذت مكانها في سلسلة الاشكال الديمقراطية وخدعت الكثيرين في الغرب ، فان عجز الليبراليين وضجيجهم الفارغ في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر قد أثارا أفكارا سوداء حتى لدى بطل تورغنيف «بوستيينوفيش» في أواخر حياته . وكشف تولستوي في «آنا كارنينا» ومن ثم في « البعث » الجوهر الحقيقي لليبرالية النبلاء ــ البورجوازيين الروس . عرى الكاتب العظيم وانتقد بلاهوادة المقولات البورجوازية على صعيد المجتمع والسياسة وكذلك الفن اللاشعبي كما اعتبره ــ الذي نما على أرضية مجتمع الملكية .

غذت الاوهام زمنا طويلا مفكري أوروبا بخصوص ديمقراطية « العالم الجديد » الفتية . ونشر هذه الاوهام حتى كتاب أمريكا العظام أنفسهم . وكان مغنيها المبكر الشاعر وولت ويتمان من أوائل من خاب أملهم فيها . صور الكاتب فانيمر كوبر ومن بعده هاورد فاست أيضا المصير التراجيدي لسكان أمريكا الشمالية . كما هزت العالم « كوخ العم توم » لبيتشر ستو .

في المرحلة الاولى من حياته الابداعية كان مارك توين مقتنعا ان الديمقراطية الامريكية ، بمساواتها الجميع أمام القانون ، بحرية الكلمة في ظلها ، بانتخاباتها العامة ، تعتبر وطن الاوضاع والانظمة « السليمة » ومؤهلة لتحقيق آمال وطموحات الانسانية • لكنه ، مع تعمقه في ادراك الجوهر الاستغلالي للديمقراطية البورجوازية الامريكية ، يتجاوز تدريجيا الاوهام ويصبح هجاء عنيفا للطبيعة القذرة المميزة للرأسمالية الامريكية ، خصوصا في طور انتقالها الى مرحلة الامبريالية • ويتوصل الكاتب الامريكي الكبير الى خلاصة مؤداها انه في أمريكا الامبريالية ، « كما في كل مكان » « الاموات وحدهم يملكون حرية الكلمة » وان حياة « العالم الجديد » قاسية جدا • وترن السخرية المرة من الديمقراطية الامريكية وعبادتها للدولار في قصة مارك توين « الرجل الذي أغوى هيدلبرغ » ـ ١٨٩٩ • وحتى نهاية حياته بقي الكاتب يعاني القلق والهم والتشاؤم دون أن يجد مخرجا لذلك فيعرب عن أسفه لأن « هذا العالم غير مملوء بالكتب التي تسخر من الحياة البائسة ، من هذا العالم الذي لامعنى له ومن الجنس البشري الوضيع » •

السمة العامة لمضمون الواقعية الكلاسيكية الفكرية اذن هو التناقض بين المثل الاعلى الانساني للكاتب والصعوبة الفعلية في ايجاد تجسيد له في الحياة في ظروف مجتمع الاستغلال • كتب دوستويفسكي الى س• ايفانوفا عام ١٨٦٧ عندما كان منكبا على كتابة روايته « الأبله » مايلي : « الفكرة الرئيسية للرواية هي التصوير الايجابي للبطل المثالي • وليس ثمة ماهو أصعب من ذلك في هذا العالم وخصوصا الآن • فجميع الكتاب الذين تنطحوا لهذا

الموضوع من روس وأوربيين جادلوا ثم استسلموا في النهاية لان المهمة عسيرة للغاية . فالبطل المثالي لم يخلق بعد لاعندنا ولا في أوروبا المتمدنة » .

تتسم أعمال الكتاب الفرنسيين والانكليز التقدميين في القرن الثامن عشر المرتبطين فكريا بالطبقة الثالثة بالنقد الصادق المصيب للنظام القديم ولأخلاق الطبقة الارستقراطية ـ النبيلة ـ هذا النقد الذي أمد واقعيتهم بالقوة والعافية . وعندما كان الكتاب يتطرقون الى واقع الوسط البورجوازي القريب والمحبب الى قلوبهم كانت تتخلل تصويرهم في غالب الاحيان نفحات التمجيد والتعاطف التي تضعف قوة الفن الواقعي وموضوعيته . برزت هذه الظاهرة في الادب الروسي في القرن التاسع عشر في يوثوبيا غوغول الرجعية في القسم الثاني من « الارواح الميتة » وفي الانبعاث الاخلاقي لبطل تولستوي نيخلودوف في رواية « البعث » على سبيل المثال . فقد استبدل التصوير الموضوعي للواقع الى هذا الحد أو ذاك بتجسيد المثل الاعلى الذاتي للكاتب ، لم يعد الواقع مصدر التصوير ، بل رؤية الكاتب لما يجب أن يكون عليه هذا الواقع . بهذا الشكل تصبح واقعية القرن الثامن عشر قريبة من الكلاسيكية ، أما واقعية القرن التاسع عشر فتقترب من الرومانتيكية . من أجل تجاوز مثل هذه الحالة لجأ ليرمنتوف الى الشكل الرومانتيكي عندما كان يريد تقديم نموذج البطل المحب للحرية وكان في ذلك كاتبا واقعيا عظيما . لم ير الكاتب في الحياة الروسية في الثلاثينات أشكالا تاريخية حقيقية في الواقع تجسد مثال المحب للحرية كتلك التي أتاحتها الحياة في العشرينات الى حد ما من خلال حركة الديسمبريين والتي مكنت غريبايدوف من تقديم نموذج رائع في شكل واقعي (بطل «مصيبة من العقل») .

حمل الكتاب في أوساط المثقفين الديمقراطيين أوهاما بخصوص حل التناقضات الاجتماعية وتسوية الصراعات الطبقية سلمياً وبشكل تدريجي وتوحيد الناس بالفن على أرضية المثل العليا « القومية » و «الانسانية العامة». لكن مع ازدياد حدة التناقضات الاجتماعية للرأسمالية ، تطور وتعمق الطابع النقدي للفن الواقعي ، وبرز واتضح افلاس أفكار التقدم السلمي ، الاصلاحات « من فوق » والقضاء التدريجي على التناحر الطبقي والتناقضات بين «الاعلين» و « الأدنين » في المجتمع • قال ابسن عام ١٨٧٠ حول مصير مبادىء ثورة ١٧٨٩ مايلي : « مازلنا في الحقيقة تتغذى حتى الآن من فتات مائدةثورة القرن الماضي وهذا الطعام قد مضغته الاسنان بما فيه الكفاية ، أصبحت المفاهيم بحاجة الى مضمون جديد وفهم جديد أيضا ، فالحرية والمساواة والاخوة لم تعد هي هي كما كانت عليه في السابق • » •

ويمكن القول ان التطور الفكري لواقعية القرن التاسع عشر يمثل عملية تعاقب متواصل للآمال والرجاءات من جهة و « للاوهام » المتبخرة من جهة ثانية • برزت هذه النقطة لدى بوشكين وليرمنتوف ، نيكراسوف وشيدرين، ديكنز وهاردي ، ابسن ومارك توين • لكن كثيرا ماتنسب نظرية الادب عندنا، دونما أساس كاف ، الى جميع كتاب الماضي تقريبا التفاؤل المستقيم معتبرةذلك مقياس تقدميتهم • من الضروري ، برأينا ، بحث هذه الحالة في كل مرة بشكل تاريخي ـ ملموس •

الروح الانسانية كانت ، كما أشرنا ، سمة لازمت أدب الواقعية النقدية

خلال تطوره • لكن صارت تبرز مع الزمن وبالتدريج طوباوية وعدم جدوى هذا النزوع الانساني ، وقد أشار الى ذلك الكاتب العظيم دوستويفسكي • يتكشف وبوضوح أكثر تدريجيا الصراع المتأزم الذي لايجد حلا بين المثل الاعلى الانساني للحرية والتطور الشامل للشخصية الانسانية وبين الطبيعة الاجتماعية للمجتمع البورجوازي ــ الرأسمالي • وكثيرا ماغدا مفهوم الانسانية بالذات يستخدم لتغطية أفكار السلام الطبقي ، للتبشير بالخير البورجوازي ولتبرير الجبن الليبرالي •

في ظروف الصراع الطبقي المتفاقم بين المضطهدين والمضطهدين انقلبت الدعوة الى « الانسانية العامة » والتفكير « بالفرد الانساني بشكل عام » الى دفاع بورجوازي ــ ليبرالي عن مصالح الطبقات المسيطرة ، وقد فضح مثل هذه الانسانية المزيفة في الادب في نهاية القرن التاسع عشر كل من شيدرين ، أناتول فرانس ، برناردشو •

لم يكن هناك أي شيء مشترك طبعا بين كتاب مرحلة ماقبل الثورة الانسانيين العظام ــ العجوزين فيكتور هوغو وليف تولستوي والشابين ــ رومان رولان ورابندرانات طاغور وبين الانسانية المزيفة للطبقات المسيطرة • لكن المثل الاعلى الانساني تجسد في مؤلفاتهم بقوة واخلاص كبيرين وأثاروا بذلك أصداء التأييد والاعجاب في كل العالم • عمل رومان رولان كأستاذه تولستوي بشكل حثيث لايقاظ مشاعر الحب والاخوة الكامنة في نفوس الناس ودعا البشرية الى الاتحاد • لكن انكشفت طوباوية انسانيتهم في المصير

التراجيدي لآمالهم ، ووجهت ثورة ١٩٠٥ صفعة قوية الى التولستوية •

قبرت الحرب العالمية الاولى ، التي حركت العقول في أوساط المثقفين الديمقراطيين الانسانية البورجوازية ــ الديمقراطية الخيالية ويشتد تأثير شتى التيارات المشككة بقوى العقل الانساني • وتخيم النزعات التشاؤمية بشكل قوي على اناتول فرانس ، فبعد روايته « جزيرة البطريق » يكتب « ثـورة الملائكـة » ــ ١٩١٤ المجسدة لفكرة الحركة الدائرية اللامجدية للتاريخ • أما أوهام رومان رولان الانسانية المعروفة في سنوات الحرب فقد قادته الى دراما روحية عميقة • واعترف الكاتب الانساني العظيم الذي حاول الارتفاع فـوق مستوى « الاحداث الجارية » بعد ذلـك ان هـذه الاوهام « خداع للذات وللآخرين » •

بحث توماس مان ، الذي اعتبر نفسه تلميذ الانسانية الاوروبية ، فـي المجتمع المعاصر له عن القوى القادرة على تجسيد المثـل الاعلى للانسانيـة الكلاسيكية • لكن بحثه الدقيق والدؤوب لم يخرج أيضاعن اطار البورجوازية الديمقراطية • وبددت الحرب أوهـام توماس مان كما بددت من قبل أوهـام رومان رولان • فقد صرح مباشرة بعد الحرب بما يلي : « انتهكت أفضـل أفكار ذلك الزمن » القرن التاسع عشر « الانسانية ميتـة • والخلاصـة : من الضروري تأسيس انسانية جديدة » • كان هؤلاء الكتاب الواقعيون ممثلي أمم متحاربة في ذلك الحين ، لكن مصير انسانيتهم كان واحدا • انهار كل شيء في أوروبا الغالية على قلوبهم • ولم ينقذ شرف قواها الطليعية في ذلك الزمـن

سوى عدد غير كبير من رجال الفكر والفن المرتبطين بحركة البروليتاريا الاشتراكية •

وهكذا وجدت تعبيرا فنيا لها في النتاج الفني لأدب القرن التاسع عشر الواقعي أفكار اقطاعية ــ ارستقراطية ، بورجوازية ــ ليبرالية ، بورجوازية ديمقراطية ــ تنويريه ، راديكاليه بورجوازية صغيرة وأفكار بطريركية دينية فلاحية •• وغيرها • لكن لم تحمل هذه النظريات والافكار التي لم تخرج عن اطار الحركة البورجوازية ــ الديمقراطية ، حتى في أكثر أشكالها ثورية ، معها حلا فعليالتناقضات العمل ورأس المال ، الغنى والفقر ــ تلك التي أقلقت ملايين الناس •